

التحرير والتنوير

واستعمال العرب همزة الاستفهام مع حروف العطف المشتركة في الحكم استعمال عجيب تقدم بيانه عند قوله تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم أنكبتم) في سورة البقرة .

والجملة مستأنفة وهي ابتداء كلام في محاجتهم وتنبههم بعد الإخبار عنهم بأنهم مستدرجون ومملى لهم .

الاستفهام للتعجب من حالهم والإنكار عليهم و (ما) في قوله (ما بصاحبهم من جنة) نافية كما يؤذن به دخول (من) على منفي ما لتأكيد الاستغراق .

وفعل (يتفكروا) منزل منزلة اللازم فلا يقدر له متعلق للاستغناء عن ذلك بما دل عليه النفي في قوله (ما بصاحبهم من جنة) أي ألم يكونوا من المفكرين أهل النظر والفعل المعلق عن العمل لا يقدر له مفعول ولا متعلق .

والمقصود من تعليق الفعل هو الانتقال من علم الطان إلى تحقيق الخبر المظنون وجعله قضية مستقلة فيصير الكلام بمنزلة خبرين خبر من جانب الطان ونحوه وخبر من جانب المتكلم دخل في قسم الواقعات فنحو قوله تعالى (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) هو في قوة أن يقال : لقد علمت لا ينطقون ما هؤلاء ينطقون أي ذلك علمك وهذا علمي وقوله هنا (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) في قوة : أو لم يتفكروا صاحبهم غير مجنون ما بصاحبهم من جنة . فتعليق أفعال القلب ضرب من ضروب الإيجاز وأحسب هذا هو الغرض من أسلوب التعليق لم ينبه عليه علماء المعاني وإن خصائص العربية لا تنحصر .

و (الصاحب) حقيقته الذي يلزم غيره في حالة من سفر أو نحوه ومنه قوله تعالى (يا صاحبي السجن) وسميت الزوجة صاحبة ويطلق مجازا على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر تنزيلا لملازمة الذكر منزلة ملازمة الذات ومنه قول أبي معبد الخزاعي لامرأته أم معبد لما أخبرته بدخول النبي صلى الله عليه وسلم بيتها في طريق الهجرة ووصفت له هديه وبركته (هذا صاحب قريش) وقول الحجاج في بعض خطبه لأهل العراق " أستم أصحابي بالأهواز حين رتم الغدر واستنبتتم الكفر " يريد أنهم الذين قاتلوه بالأهواز فمعنى كونهم أصحابه أنه كثر اشتغاله بهم وقول الفضل بن عباس اللهي .

كل له نية في بغض صاحبه ... بنعمة [] نقلكم وتقلونا فوصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه صاحب الذين كذبوا بالآيات : هو بمعنى الذي اشتغلوا بشأنه ولزموا الخوض في أمره وقد تكرر ذلك في القرآن كقوله تعالى (وما صاحبكم بمجنون) .

والجنة بكسر الجيم اسم للجنون وهو الخبال الذي يعتري الإنسان من اثر مس الجن إياه في عرف الناس ولذلك علقت الجنة بفعل الكون المقدر بحرف الباء الدال على الملابس . وإنما أنكر عليهم وعجب من إعراضهم عن التفكير في شأن الرسول E انه غير مجنون ردا عليهم وصفهم إياه بالجنون (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون وقالوا معلم مجنون) وهذا كقوله تعالى (وما صاحبكم بمجنون) .

وجملة (إن هو إلا نذير مبين) استئناف بياني لجواب سائل منهم يقول : فماذا شأنه أو هي تقرير لحكم جملة (ما بصاحبهم) من جنة ففصلت لكمال الاتصال بينهما المغنى عن العطف . والنذير المحذر من شيء يضر وأصله الذي يخبر القوم بقدم عدوهم ومنه المثل " أنا النذير العريان " يقال أنذر نذارة بكسر النون مثل بشارة فهو منذر ونذير . وهذا مما جاء فيه فعيل في موضع مفعل مثل الحكيم بمعنى المحكم وقول عمرو بن معد يكرب . أمن ريحانة الداعي السميع أي المسمع .

والمبين اسم فاعل من أبان إذا أوضح ووقع هذا الوصف عقب الإخبار بنذير يقتضي أنه وصف للخبر فالمعنى أنه النذير المبين لنذارته بحيث لا يغادر شكا في صدقه ولا في تصوير الحال المحذر منها فالغرض من اتباع (النذير) بوصف (المبين) التعريض بالذين لم ينصاعوا لنذارته ولم يأخذوا حذرهم من شر ما حذرهم منه وذلك يقطع عذرهم . ويجوز جعل (مبين) خبرا ثانيا عن ضمير صاحبهم والمعنى أنه نذير وأنه مبين فيما يبلغه من نذارة وغيرها .